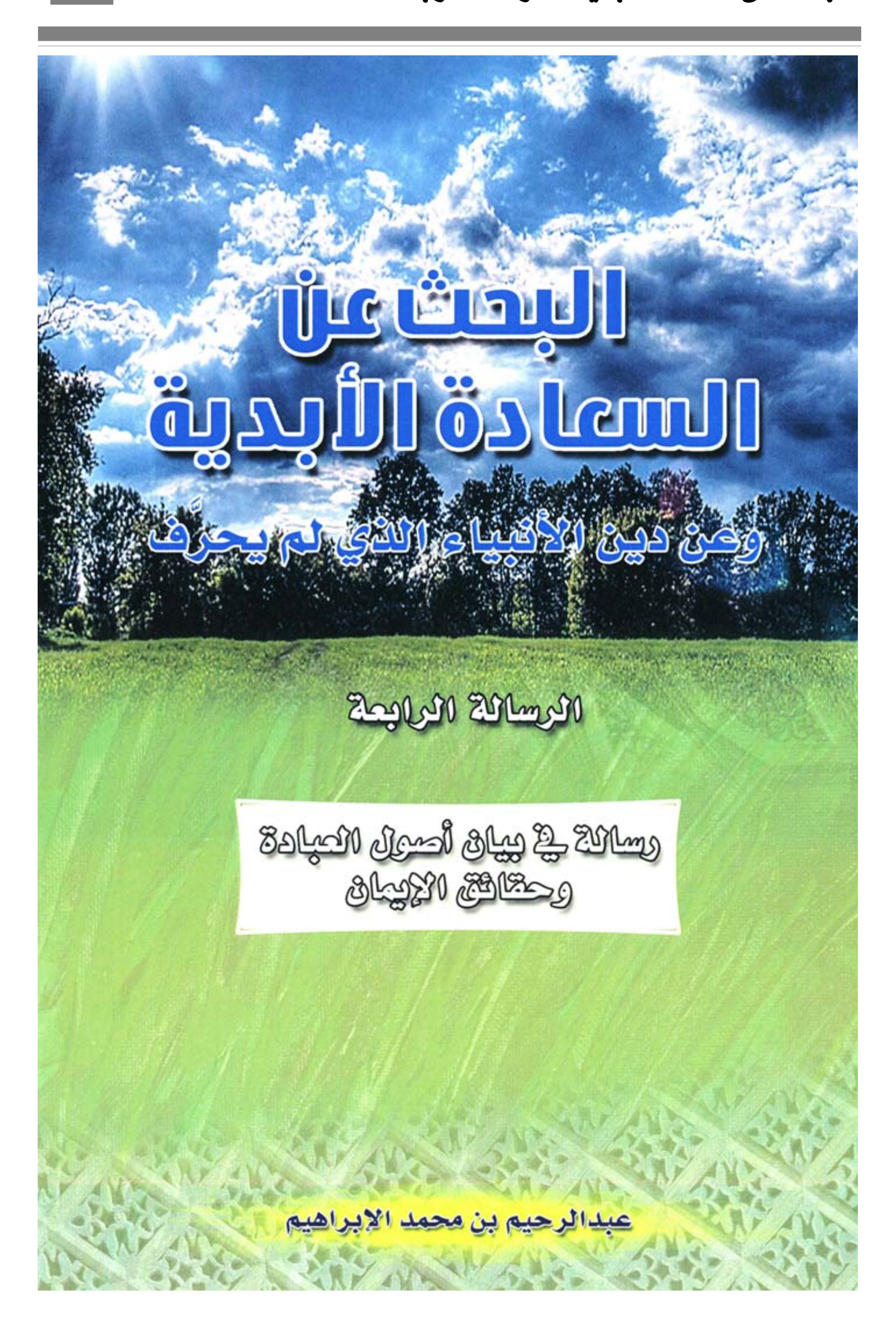

البحث عن
السعادة الأبدية
وعن دين الأنبياء الذي لم يحرَّف
الرسالة الرابعة
رسالة في بيان أصول العبادة
وحقائق الإيمان
عبدالرحيم بن محمد الابراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث هادياً ومعلماً ورحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، يقول الله عز وجل : ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿١٨﴾﴾ (آل عمران) .

ويقول الله تعالى : ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ** ﴿١٩﴾﴾ (محمد) .

ويقول تعالى : ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴿١١﴾﴾ (المجادلة) .

ويقول الله تعالى : ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴿٩﴾﴾ (الزمر) .

هذا ما قاله المولى سبحانه في حق الذين أوتوا العلم ـ ومن أصدق من الله قيلاً ـ في أن يجعلهم في أعلى الدرجات وأرفع المقامات ، فلا يستوي عند الله عز وجل الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، لذا كان حقاً على الله عز وجل من كانت هذه صفته ـ أن يجعله من ورثة الأنبياء ـ وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا علماً فمن أخذه أخذ بحظ وافر ، كما جاء في الحديث .

وإن أشرف العلوم وأعظمها على الإطلاق هو علم الإيمان والتوحيد ، وقد أوكل الله تعالى لأنبيائه ورسله تبليغ هذا العلم للناس ، فهو ميراثهم الذي من نال شيئاً منه فقد أخذ بحظ وافر ، فمن استكثر منه فقد استكثر من النصيب الوافر والخير كله . فهو الحصن الحصين ، والسد المنيع ، لذا سعت شياطين الإنس والجن إلى حجب الناس

عن معرفة هذا العلم العظيم الذي لم تشرع العلوم الأخرى والمعارف الأخرى إلا لأجله ، فهي متفرعة منه ، وهو الأصل .

وقد قعد الشيطان ـ لعنه الله ـ لابن آدم بأطرقه ، وكان مما قعد له في ذلك هو طريق العلم بالله تعالى ودينه الذي هو أول سبل النجاة والسعادة والفوز في الدنيا والآخرة .

وإن عالماً واحداً ـ كما جاء في الأثر ـ أشد على الشيطان من ألف عابد .

فبالعلم وأهله تهدم صروح الكفر ، ويرفع صرح الإسلام ، وتتجلى الحقائق ، وتستنار طرق الهدى والجنان ـ للمشمرين للعمل ـ وبه تكمم أفواه المفترين على الله الكذب الذين يصدون عن سبيل الله بغير علم .

وبالعلم تُعرف وتُستبان مسالك وسبل المجرمين والمحرفين للدين . قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الأنعام) .

لذا كان لزاماً على كل مسلم التسلح بما قد بينه الله تعالى في كتابه وسنة نبيه ﷺ من أصول العلم لهذا الدين ، فيكون على بينة من أمر الله ، ليعبد ربه على بصيرة ، ولا يكون كالدابة التي تقلد وتنقاد ، ويتلاعب به من يتلاعب بالدين حتى تكون نهايته الهاوية ، وليهيئ المرء نفسه لنصرة هذا الدين العظيم والذب عنه ، ولا يستصغر نفسه ، فالعامي من الموحدين يغلب ألفاً من علماء الشياطين .

يقول الإمام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ في رسالته كشف الشبهات : (واعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء . كما قال الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (الأنعام) .

وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة ، وكتب وحجج ، كما قال تعالى : ﴿**فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ**﴾ (غافر :٨٣) .

إذا عرفت ذلك ، وعرفت أن الطريق إلى الله تعالى لابد له من أعداء قاعدين عليه أهل فصاحة وعلم وحجج ، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحاً تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدمهم لربك عز وجل : ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)**﴾ (الأعراف) .

ولكن إذا أقبلت على الله ، وأصغيت إلى حجج الله وبيِّناته فلا تخف ولا تحزن : ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)**﴾ (النساء) .

والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين ، كما قال تعالى : ﴿**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)**﴾ (الصافات) .

فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان ، كما أنهم هم الغالبون بالسيف والبنان ، وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح .

وقد منَّ الله علينا بكتابه الذي جعله تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها ، كما قال تعالى : ﴿**وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣)**﴾ (الفرقان) .

قال أهل التفسير : هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة) .أهـ .

فصل في بيان العبادة
معناها، وأركانها، وأقسامها
وأنواعها، وصورها، وشروط قبولها

أصل العبادة في اللغة : من الذل ، ويُقال بعير معبَّد : أي مذلل .

وطريق معبَّد : إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام .

وأما معنى العبادة في الشرع فهي : غاية المحبة لله تعالى مع غاية التذلل والخضوع له سبحانه .

وكذلك الدين فإنه يتضمن معنى الذل ، يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في رسالته «العبودية» : (والدين يتضمن معنى الخضوع والذل . يقال : دنته فدان . أي : أذللته فذل ، ويقال : ندين الله وندين لله . أي : نعبد الله ونطيعه . ونخضع له ، فدين الله : عبادته وطاعته والخضوع له)أهـ .[١]

---

(١) مجموعة التوحيد ، ص ٤٥٧ .

أركان العبادة

تقوم العبادة على ركنين :

أولها : المحبة ، **وثانيها** : الخضوع والتذلل .

ولا يكون العبد عابداً لله تعالى محققاً لعبوديته سبحانه إلا أن يقوم في أمر العبادة عنده هذين الركنين . فمن خضع لإنسان مع بغضه له لم يكن عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له .

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين : (والعبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له لم تكن عابداً له . ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محباً خاضعاً)أهـ .[١]

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في رسالته العبودية ص٤ :

(لكن العبادة المأمور بها ، تتضمن معنى الذل ومعنى الحب : فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى ، بغاية المحبة له .

فإن آخر مراتب الحب : هو التتيم ، وأوله : العلاقة ، لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم الصبابة ، لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام ، وهو الحب الملازم للقلب ، ثم العشق . وآخرها : التتيم ، يقال : تيم الله ، أي عبدالله فالمتيم المعبد لمحبوبه)أهـ .

ويقول العلامة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن أبابطين رحمه الله : (والعبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ، ومعنى الحب ، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له ، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ليس العبادة غير توحيد المحبة ، مع خضوع القلب والأركان :

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٥) .

والحب نفس وفاقه فيما يحب

وبغض ما لا يرتضي بجنان

ووفاقه نفس اتباعك أمره

والقصد وجه الله ذي الإحسان

فعرَّف العبادة بتوحيد المحبة مع خضوع القلب والجوارح ، فمن أحب شيئاً وخضع له ، فقد تعبَّد قلبه له ، فلا تكون المحبة المنفردة عن الخضوع عبادة ، ولا الخضوع بلا محبة عبادة .

فالمحبة والخضوع ركنان للعبادة ، فلا يكون أحدهما عبادة بدون الآخر فمن خضع لإنسان مع بغضه له ، لم يكن عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له ، لم يكن عابداً له ، كما يحب ولده وصديقه . ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون أعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة الكاملة ، والذل التام إلا الله سبحانه)أهـ .[١]

(١) مجموعة التوحيد ص ١٦٤ .

أقسام العبادة

تنقسم العبادة إلى قسمين :

القسم الأول : عبادات محضة خالصة لله تعالى هي بذاتها عبادة ، لأنها متضمنة لمعاني العبودية . كالذل والخضوع والانقياد والتعظيم والمحبة وغيرها ، وهذه العبادات منها : القيام ، والركوع ، والسجود ، والطواف ، والتحاكم ، والذبح ، والدعاء ، والنذر ، والتوكل ، والمحبة ، والتعظيم ، وغيرها .

والقسم الثاني : من العبادة ، وهي عموم أوامر الله تعالى . كبر الوالدين ، وصلة الرحم ، والإحسان إلى الناس ، وغير ذلك . وهي ليست بذاتها عبادة ، وإنما إذا فعلها العبد امتثالاً لأمر الله عز وجل كان ذلك منه عبادة لله تعالى .

وهذا هو المعنى العام الذي ذهب إليه ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في تعريفه لمعنى العبادة في قوله : «هو اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة» .

إنما أراد تعريف العبادة بمعناه العام ، وهذا المعنى يدخل فيه كلا القسمين .

العبادات المحضة التي هي بذاتها عبادة ، وعموم أوامر الله التي ليست هي بذاتها عبادة .

أنواع العبادة

والعبادة نوعان : النوع الأول : عبادات باطنة متعلقة بالقلوب : كالمحبة ، والتعظيم ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، وغير ذلك .

والنوع الثاني : عبادات ظاهرة متعلقة بسائر أعمال الجوارح ، والتي منها : القيام ، والركوع ، والسجود ، والطواف ، والتحاكم ، والذبح ، وغير ذلك ، وما يتعلق منها باللسان ، كالدعاء ، والنذر ، والاستغاثة ، والاستعانة ، والاستعاذة ، والاستنصار ، وغير ذلك .

وهذا النوع من العبادات (العبادات الظاهرة) بمجرد صرف شيء منها لغير الله يكون هذا شركاً من الصارف ، ولا يصح أن يشترط البعض صرف شيء من العبادات الباطنة لتكفير من صرف شيء من العبادات الظاهرة .

مثال ذلك : إذا سجد إنسان لصنم ـ رغبة في دنيا ـ فإنه مجرد فعل ذلك يكون هذا شركاً من الفاعل ، ولا يصح أن يقال لا يكون هذا الساجد كافراً إلا إذا كان معظّماً ، لأن التعظيم عبادة قلبية باطنة ، ووجودها ليس هو قيداً وشرطاً في كفر من سجد للصنم ، وإنما هي زيادة في كفره ، لأنه يكون في هذه الحالة قد جمع ما بين كفرين وشركين : الكفر الباطن والكفر الظاهر ، وشرك القلب وهو (التعظيم) . وشرك الجوارح وهو (السجود للصنم) .

وكذا الأمر والحكم فيمن قام للعَلَم ، فإن مجرد قيامه يكون هذا شركاً وكفراً من الفاعل . فإن قام معظماً كان كفره أغلظ وأشد ، لكونه قد جمع ما بين كفرين وشركين . وسوف يأتي ـ بمشيئة الله ـ بيان ذلك في باب الإيمان . بأنه لا يُشترط عمل القلب الذي هو (التعظيم) في كفر من صرف العبادة لغير الله ، وأنه لا يشترط ذلك إلا المرجئة .

صور العبادة

وللعبادة المحضة صور كثيرة، منها: (القيام، والركوع، والسجود، والطواف، والعكوف، والتحاكم، والذبح، والنذر، والدعاء، والاستغاثة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستنصار، والخضوع والتسليم لأمر الله تعالى، والمحبة، والتعظيم، والإخلاص، والتوكل، والخوف، والرجاء، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والإنابة، وغير ذلك من صور العبادة).

أما دليل القيام فقوله: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)**﴾ (الحج).

وقوله تعالى: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)**﴾ (البقرة).

وأما دليل الركوع والسجود فقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)**﴾ (الحج).

وقوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)**﴾ (فصلت).

وقوله تعالى: ﴿**فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)**﴾ (النجم).

وأما دليل الطواف فقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)**﴾ (الحج).

وقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)**﴾ (الحج).

وقوله ﷺ : «**الطواف بالبيت صلاة**» .

وأما دليل العكوف فقوله تعالى : ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)**﴾ (البقرة) .

وأما دليل التحاكم فقوله تعالى : ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)**﴾ (يوسف) .

وقوله تعالى : ﴿**ولا تشرك في حكمه أحداً**﴾ (الكهف) ، كما في قراءة عامر وهو من السبعة .[١]

وهو نظير قوله تعالى : ﴿**فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨)**﴾ (الجن)

فبيَّن سبحانه في هاتين الآيتين أن التحاكم عبادة وهو حق له سبحانه ، كما أن الدعاء عبادة وهو حق له ، عز وجل ، بل قد جاء التصريح في بيان الشرك في آية التحاكم وما لم يأت به في آية الدعاء .

وأما من السنة ، فهو ما رواه البخاري رحمه الله في صحيحه عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه لقيام الليل : «اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت» .

وأما دليل الذبح فقوله تعالى : ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)**﴾ (الكوثر) .

وقوله تعالى : ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)**﴾ (الأنعام)

---

(١) وفي قراءة حفص ، ﴿ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ .

والنسك : هو الذبح .

ودليل النذر قوله تعالى : ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا** ⦗٧⦘﴾ (الإنسان) .

وقوله تعالى : ﴿**ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** ⦗٢٩⦘﴾ (الحج) .

ودليل الدعاء قوله تعالى : ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ⦗٦٠⦘﴾ (غافر) .

وقوله ﷺ : «**الدعاء هو العبادة**» (رواه الترمذي وأبو داود) .

ودليل الاستغاثة قوله تعالى : ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ⦗٩⦘﴾ (الأنفال) .

ودليل الاستعانة قوله تعالى : ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ⦗٥⦘﴾ (الفاتحة) .

ودليل الاستعاذة قوله تعالى : ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ** ⦗١⦘ **مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** ⦗٢⦘﴾ (الفلق) .

ودليل الاستنصار قوله تعالى : ﴿**رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ⦗٢٨٦⦘﴾ (البقرة) .

وقوله تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿**فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** ⦗١٠⦘﴾ (القمر)

ودليل الخضوع والتسليم لأمر الله ، قوله تعالى : ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ⦗٦٥⦘﴾ (النساء)

ودليل المحبة قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)﴾ (البقرة) .

ودليل التعظيم قوله تعالى : ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)﴾ (نوح) .

وقوله سبحانه «وقاراً» أي عظمة ، أي ما لكم لاتعظمون الله .

ودليل الإخلاص قوله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)﴾ (البينة) .

ودليل التوكل قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾ (هود)

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)﴾ (يونس)

ودليل الخوف قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾ (آل عمران) .

وقوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ (الرحمن) .

وقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠)﴾ (النازعات) .

ودليل الرجاء قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾ (الإسراء) .

ودليل الرغبة والرهبة والخشوع قوله تعالى : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ (الأنبياء) .

ودليل الإنابة قوله تعالى : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤)﴾ (الزمر) .

كيف تتعرف على صور العبادة

لقد بيَّن الله عز وجل في كتابه صور العبادة التي اختصها سبحانه لنفسه بياناً واضحاً لا خفاء فيه ، إذ لا عذر لإنسان - يشرك في عبادة الله عز وجل وقد بلغه القرآن وسمع آيات الله تعالى - في أن يجهل شيئاً من هذه الصور العبادية .

والعبادة ممكن معرفتها بعدة أمور :

الأمر الأول : أن يأتي النص بتسميتها عبادة ، كالدعاء ، قال تعالى : ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** (٦٠)﴾ (غافر) .

وكالسجود في قوله تعالى : ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (٣٧)﴾ (فصلت) .

الأمر الثاني : أن يأتي النص في بيان أحقيتها لله تعالى وحده ، وأنه مما اختص به سبحانه لنفسه ، كما في قوله تعالى : ﴿**فاسجدوا لله واعبدوا**﴾ (النجم) .

وقوله تعالى : ﴿**وقوموا لله قانتين**﴾ (البقرة) .

وقوله تعالى : ﴿**إن الحكم إلا لله**﴾ (يوسف) .

فقوله «لله» دل على أن السجود والقيام والتحاكم عبادات محضة خالصة لله تعالى . فهي (لله) وحده حق له سبحانه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له**﴾ (الأنعام) .

وقوله تعالى : ﴿**فصلِّ لربك وانحر**﴾ (الكوثر) .

فقوله (لله) وقوله (لربك) دل على أن الصلاة والنسك الذي هو (الذبح والنحر) عبادتان خالصتان لله عز وجل .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿**له دعوة الحق**﴾ (الرعد) .

فقوله (له) دل على أن الدعاء عبادة خالصة لله تعالى ، وأنه حق محض (له) جل وعلا فهو (له) سبحانه دون غيره .

الأمر الثالث : الذي به تتعرف على صور العبادة : أن يأتي النص بامتداح من فعلها . كالنذر كما في قوله تعالى : ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا** (٧) ﴾ (الإنسان) .

وفي عبادة الخشوع والرغبة والرهبة ، قوله تعالى : ﴿**إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين**﴾ (الأنبياء) .

شروط قبول العبادة

يشترط لقبول العبادة أن تكون صحيحة ، ولاتكون صحيحة إلا بشرطين :

الشرط الأول : **(الإخلاص)** وهو أن تكون العبادة خالصة لله تعالى من الشرك الأكبر والأصغر ، وهذا الشرط هو مقتضى (لا إله إلا الله) فإن مقتضاها إخلاص العبادة لله تعالى وعدم الإشراك به .

والشرط الثاني : **(الاتباع)** وهو أن يكون متبعاً في عبادته سنة الرسول ﷺ في كل شيء ، وهذا الشرط هو مقتضى شهادة أن (محمداً رسول الله) فإنها تقتضي اتباع الرسول ﷺ وطاعته وترك البدع ، واتباع ما كان عليه من الشرع .

ودليل الشرطين قوله تعالى : **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾** (الكهف) .

وقوله تعالى : **﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾** (البقرة) .

(فأسلم وجهه) يعني أخلص عبادته لله ، (وهو محسن) أي متبع لرسول الله ﷺ قد أحسن متابعته للرسول . ومن السنة قوله ﷺ : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» .

وقوله ﷺ : «صلوا كما رأيتموني أصلي» .

فصل
في ذكر أنواع المعبودات

(الصنم . والوثن . والإله . الرب . والطاغوت) هذه المعبودات الخمس إذا اجتمعت افترقت من أوجه ، وإذا افترقت اجتمعت ، فإذا افترقت فإنها تشترك كلها في العلة بأنها عبدت من دون الله ، وإذا اجتمعت افترقت في المعنى ، فيصبح كل له معنى .

فالصنم : هو كل ما صرف له عبادة من الجمادات المنحوتة على هيئة صورة . كالتماثيل وغير ذلك .

والوثن : هو كل ما صرف له عبادة من الجمادات ، سواء كانت المنحوتة كالتماثيل أو الغير منحوتة كالحجر والشجر والقبر والصليب والعَلَم وغير ذلك . ودليل ذلك قوله ﷺ : «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (رواه مالك في موطئه) .

فقوله «وثناً يُعبد» يدل على أن الشيء من الجمادات متى صرف له عبادة من العبادات كان وثناً .

ومن ذلك أيضاً قوله «كما في سنن الترمذي - لعدي بن حاتم لما دخل عليه وفي عنقه صليب من ذهب (يا عدي اطرح عنك هذا الوثن) ثم تلا قوله تعالى : ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾» (الحديث) .

والصليب هو وثن النصارى المعبود المقدس عندهم ، وكان وثناً لأنه صرف له شيء من العبادة كالتعظيم وغير ذلك .

والوثن في اللغة : هو الشيء المقيم في مكانه ، الراكد ، الثابت ، الدائم (لسان العرب) .

وقوله عز وجل : ﴿**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ .

فإن الأنصاب هنا : هو كل ما يُنصب ويُجعل له شيء من العبادة ، سواء كان صنماً أو صليباً أو علماً ، أو غير ذلك .

فالوثن إذاً في الشرع : هو الشيء الراكد الثابت من الجمادات ، وهو الذي يُنصب ويُقصد له أداء العبادة . ويكون الصنم المنحوت وثناً لأنه داخل في جملة الجمادات المعبودة ، فكل صنم وثن وليس كل وثن صنماً ، لأن الوثن يشمل الصنم وغيره مما عُبد من دون الله من الجمادات .

والأوثان كلها طواغيت والأصنام طواغيت ، لأنه صُرف لها حق الله عز وجل وهو العبادة ، فإن الطاغوت هو كل ما عُبد من دون الله تعالى .

قال تعالى : ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ** (٣٠)﴾ (الحج) .

وقال تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ** (١٧)﴾ (الزمر) .

فقوله تعالى : ﴿الطاغوت أن يعبدوها﴾ فيه دليل وبيان أن الأشياء من الجمادات متى صُرف لها شيء من العبادات كانت طواغيت .

والإله : وهو كل من صُرف له عبادة من العبادات الخاصة بألوهية الله تعالى ، سواء كان إنساناً حياً ، أو ميتاً ، أو جماداً منحوتاً ، أو غير منحوت .

وأصل الإله في اللغة : هو الذي يُعبد ويُصرف له عبادة ومعنى أله : أي عَبَدَ والمألوه : هو المعبود .

والرب : هو كل من صُرف له فعل من أفعال الله تعالى الخاصة بربوبيته عز وجل . كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والنفع والضر والحكم والتشريع وغير ذلك ، قال تعالى : ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** (٣١)﴾ (التوبة) .

وقد دلَّت الآية على أن الأرباب داخلين في جملة المعبودات التي عبدت من دون الله ، كما في قوله تعالى : ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً**﴾ .

فكل مشرك في ربوبية الله تعالى هو مشرك في ألوهيته ، وعبادته ، وليس كل مشرك في الألوهية هو مشرك في الربوبية .

والطاغوت : هو كل من طغا وتجاوز حده ، بأن أخذ حقاً من حقوق الله ونسبه لنفسه كفعل من أفعاله جل وعلا . أو صفة من صفاته ، أو عبادة من العبادات .

وهو يشمل هذه المعبودات جميعها (الصنم ، والوثن ، والإله ، والرب) إلا أنه يستثنى من الإله والرب من عُبد من دون الله تعالى من الأنبياء والصالحين ولم يرض بالعبادة ، وهؤلاء هم الذين تبرؤوا من عبادة غيرهم لهم اعتقاداً وقولاً وعملاً .

فبهذا التأصيل ـ إذاً ـ لأنواع المعبودات يتبين لنا أن الأعلام التي يُقام لها في هذا الزمان داخلة في جملة الأوثان والطواغيت التي عُبدت من دون الله ، وأن الأحكام التي يتحاكم إليها وهي تخالف حكم الله عز وجل داخلة في جملة الطواغيت التي تُعبد في الأرض لقوله تعالى : ﴿**يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به**﴾ (النساء : ٦٠) .

بل هي أعظم خطراً وأدهى بلية من غيرها من الطواغيت والأوثان لانكباب غالبية الناس والشعوب على عبادتها ، فلا نكاد أن نجد مصر من الأمصار ولا إقليم من الأقاليم إلا وفيه علم يُقام له كما يقام لله تعالى ، وقانون وحكم طاغوتي يُتحاكم

له ويرجع إليه عند التنازع من دون حكم الله جل وعلا ، بخلاف الطواغيت والأوثان الأخرى التي تُعبد في الأرض والتي قد تظهر عبادتها في بلد دون بلد ، وإقليم دون إقليم .

فمن صرف شيئاً ـ إذاً ـ من صور العبادة لغير الله تعالى فقد أشرك بالله واتخذ المصروف إليه (إله) فإن كان المصروف إليه من الجمادات كان (إله ، ووثن ، وطاغوت) وإن كان من التماثيل المنحوتة كان (إله ، ووثن ، وطاغوت ، وصنم) .

وهذه الحقائق الشرعية لا تتبدل ولا تتغير بأي حال من الأحوال ، لا تتغير بتغير مقاصد فاعليها وأقوالهم (فما أثبتوه في حقهم من الشرك والوثنية ثبت ، وما نفوه انتفى) هذا ليس له اعتبار في الشرع أصلاً ولا في العقل أيضاً .

أصل، وفصل
في ذكر الفرق ما بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان والإسلام المطلق ومطلق الإسلام

لقد تقرر في الشرع وعند أصول أهل السنة : أن هناك فرقاً ما بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان ، والإسلام المطلق ومطلق الإسلام ، والكفر المطلق ومطلق الكفر ، والشرك المطلق ومطلق الشرك ، وفي صور العبادة : المحبة المطلقة ومطلق المحبة ، والخوف المطلق ومطلق الخوف ، والقيام المطلق ومطلق القيام ، والطواف المطلق ومطلق الطواف .

فالإيمان المطلق : هو ما كان متعلقاً بأصله كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

وأما مطلق الإيمان : فهو كل ما أطلق عليه لفظ الإيمان في الشرع وورد في النص بتسميته إيماناً ، وهو بضع وسبعون شعبة ، منها ما هو متعلق بأصله ومنها ما هو متعلق بكماله ، أفضلها كما أخبر المصطفى ﷺ قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان .

والإسلام المطلق ، هو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد ، مع ترك الشرك في عبادة الله .

وأما مطلق الإسلام : فهو كل ما أطلق عليه في الشرع لفظ الإسلام «والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» .

والكفر المطلق : هو الكفر بالله عز وجل ودينه ورسوله ﷺ .

ومطلق الكفر : هو كل ما جاء في الشرع بتسمية كفراً ، ولا يصل إلى حد الكفر

الأكبر ، ومنه كفر النعمة ، وعموم المعاصي التي هي من شعب الكفر : «وسباب المسلم فسوق وقتاله كفر» ، والطعن في الأنساب كفر ، وكذا النياحة على الميت .

والشرك المطلق : هو الشرك في عبادة الله تعالى ، وربوبيته ، وأسمائه وصفاته .

ومطلق الشرك : هو أيضاً ما جاء في الشرع بتسميته شركاً ، ولا يصل إلى حدود الشرك الأكبر ، ومنه الرياء ، والحلف بغير الله ، وغير ذلك .

والمحبة المطلقة : هي المحبة العبادية التي اختصها الله تعالى لنفسه والتي لا تكون إلا له جل وعلا .

ومطلق المحبة : هي المحبة التي لا تصل إلى درجة التعبد للمحبوب ، ويدخل في ذلك المحبة الفطرية التي تكون ما بين الوالد وولده .

والخوف المطلق : هو الخوف العبادي الذي اختصه الله تعالى لنفسه ، كما قال سبحانه : ﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (١٧٥)﴾ (آل عمران) .

ومطلق الخوف : هو الخوف الذي لا يصل إلى درجة العبودية ، ومنه الخوف الجبلي الفطري . كالخوف من العدو ، والسباع ، والهوام ، وما شابه ذلك .

والطواف المطلق : هو الطواف الفعلي العبادي الذي اختصه الله تعالى لنفسه ، والذي لا يكون إلا له سبحانه وحول بيته ، والذي بفعله حول غير بيته يكون هذا شركاً وكفراً من الصارف .

ومطلق الطواف : هو كل ما أطلق عليه لفظ الطواف سواء في الشرع أو في عرف الناس ، ويدخل في ذلك طواف العادة أو الحاجة المتعارف عليه ، كالطواف والدوران حول مضمار السباق لممارسة الرياضة .

والقيام المطلق : هو القيام الفعلي العبادي الذي اختصه الله تعالى لنفسه على هيئة الخشوع الذي هو السكون والذي لا يكون إلا له جل وعلا .

ومطلق القيام : هو كل ما أطلق عليه لفظ القيام سواء كان في الشرع أو في عرف الناس ، ومنه قيام العادة أو الحاجة ، كالقيام للسلام على القادم وما شابه ذلك .

الكفر

معناه وأقسامه وأنواعه ومراتبه

وأصل الكفر في اللغة : هو التغطية والستر .

والكفر في الشرع : ضد الإيمان ، وهو عدم الإيمان بالله ورسله . سواء كان بالتكذيب والجحود ، أو بالشك ، أو بالإعراض عن تحقيق عبودية الله واتباع الرسول ، ويكون بالاعتقاد ، والقول ، والعمل .

قال تعالى : ﴿**والذين كفروا عما أنذروا معرضون**﴾ (الأحقاف : ٣) .

وقال تعالى : ﴿**فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى**﴾ (القيامة : ٣١ ـ ٣٢) .

أقسام الكفر

ينقسم الكفر إلى قسمين :

الأول : كفر أكبر يخرج من الملة . **والثاني** : كفر أصغر غير مخرج من الملة .

أما القسم الأول : وهو الكفر الأكبر المخرج من الملة : فهو الكفر بالله ودينه ورسله ، وهو كما تقدم يكون بالاعتقاد ، والقول ، والعمل . وصاحبه يكون منتفٍ عنه الإسلام بالكلية ، والجنة عليه حرام ، وهو مخلد في النار أبد الآبدين .

قال تعالى : ﴿**وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴿٧٢﴾﴾ (المائدة) .

وقال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ** ﴿٦﴾﴾ (البينة) .

وهذا القسم من الكفر يوجب على صاحبه عدة أمور وأحكام ، وهي مبسوطة في كتب الفقه .

أما القسم الثاني : فهو الكفر الأصغر الذي لا ينقل عن الملة ، وهو كل عمل وذنب ورد في الكتاب بتسميته كفراً ولا يصل إلى حد الكفر الأكبر . ومنه كفر النعمة الذي قال الله تعالى فيه : ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴿١١٢﴾﴾ (النحل) .

ومنه قوله ﷺ : «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**» (رواه مسلم) .

وقوله ﷺ : «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**» .[١]

ومنه قوله ﷺ : «**اثنتان في الناس هما بهما كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت**» (رواه مسلم) .

وتتمّة للفائدة أنقل هنا ما قاله ابن تيمية عندما فرّق بين الكفر المعرَّف باللام وبين كفر مُنكر في الإثبات .

قال رحمه الله : «وروى مسلم في صحيحه عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت» .

فقوله «هما بهم» أي هاتان الخصلتان هما كفر قائم بالناس ، فنفس الخصلتين كفر ، حيث كانتا من أعمال الكفر ، وهما قائمتان بالناس .

لكن ليس كل من قام به شعبة من شعب الكفر ، يصير بها كافراً الكفر المطلق ، حتى تقوم به حقيقة الكفر ، كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير بها مؤمناً ، حتى يقوم به أصل الإيمان وحقيقته ، وفرق بين الكفر المعرف باللام ، كما في قوله ﷺ : «ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة» وبين «كفر» منكر في الإثبات .

وفرق أيضاً بين معنى الاسم المطلق إذا قيل «كافر» أو «مؤمن» وبين المعنى المطلق للاسم في جميع موارده . كما في قوله «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» .

فقوله : «يضرب بعضكم رقاب بعض» تفسير للكفار في هذا الموضع ، وهؤلاء يسمون كفاراً تسمية مقيدة ، ولا يدخلون في الاسم المطلق إذا قيل «كافر» أو «مؤمن»

---

(١) أخرجه أبونعيم في الحلية (٨/ ٢٤٦) .

كما أن قوله تعالى : ﴿**من ماء دافق**﴾ سمي المني ماء تسمية مقيدة ، ولم يدخل في الاسم المطلق حيث قال : ﴿**فلم تجدوا ماء فتيمموا**﴾ أهـ .[١]

وقال أبو حيان الأندلسي في تفسيره (البحر المحيط) «الكفر إذا أطلق انصرف إلى الكفر في الدين» أهـ[٢]

وقال الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله «ولفظ الظلم والمعصية والفسوق والفجور والموالاة والمعاداة والركون والشرك ونحو ذلك من الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة قد يُراد بها مُسمَّاها المطلق وحقيقتها المطلقة ، وقد يُراد بها مطلق الحقيقة ، والأول هو الأصل عند الأصوليين ، والثاني لا يُحمل عليه إلا بقرينة لفظية أو معنوية . وإنما يُعرف ذلك بالبيان النبوي وتفسير السنة ، قال تعالى : ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾ [إبراهيم :٤] أهـ» .[٣]

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٧٠ طبعة دار المعرفة .

(٢) (البحر المحيط ٣/ ٤٩٣) .

(٣) (الرسائل المفيدة) للشيخ عبداللطيف ، جمع سليمان بن سحمان ص ٢١ ـ ٢٢ .

أنواع الكفر الأكبر

والكفر الأكبر على خمسة أنواع :

الأول : كفر التكذيب ، والدليل قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ** ﴿٦٨﴾﴾ (العنكبوت)

والثاني : كفر الإباء والاستكبار مع التصديق ، والدليل قوله تعالى : ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴿٣٤﴾﴾ (البقرة) .

والثالث : كفر الشك ، وهو كفر الظن ، والدليل قوله تعالى : ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا** ﴿٣٥﴾ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا** ﴿٣٦﴾ **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً** ﴿٣٧﴾ **لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا** ﴿٣٨﴾﴾ (الكهف) .

والرابع : كفر الإعراض ، والدليل قوله تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ** ﴿٣﴾﴾ (الأحقاف) .

والخامس : كفر النفاق ، والدليل قوله تعالى : ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ** ﴿٣﴾﴾ (المنافقون) .[١]

---

(١) مجموعة التوحيد : ص ٩ .

مراتب الكفر

الكفر مراتب ودركات كما أن للإيمان درجات .

وأول مراتب الكفر وأشدها وأعتاها : أن يكون الإنسان نداً لله عزَّ وجلَّ وهو الطاغوت : والطاغوت هو الذي يصرف لنفسه شيء مما هو من خصائصه سبحانه .

المرتبة الثانية : الكفر الجلي الواضح كالشرك بالله عز وجل ، والاستهزاء بالله ورسوله وغير ذلك .

المرتبة الثالثة : الكفر الذي يكون بسبب رد الخبر الصحيح ، ويكون هذا الخبر معلوم من الدين بالضرورة .

المرتبة الرابعة : الكفر الذي يكون بسبب ترك جنس العمل .

فإذا عرفنا هذه المراتب ، علمنا أن المرتبة الأولى والثانية لايتنزل عليها كلام أهل العلم في مسألة إعمال مانع من موانع التكفير وهو الجهل والتأويل . فنعلم أن كلام أهل العلم منصب على من أنكر شيئاً معلوم من الدين بالضرورة . إما بسبب رد الخبر الذي لم يصله ، أو تصحيح خبر ضعيف مضاد له ، أو بفهم سقيم للخبر فيأوّل الخبر تأويلاً خاطئاً . فننظر في حاله وما حوله . فإن كان مثله يجهله ، وقد انتشر الجهل في ذلك المكان وشحَّ العلم في هذه المسألة بذلك الموطن ، وأن الشائع المنتشر هو الفهم السقيم والتأويل الفاسد لذلك الخبر ، فمن مثل هذا الصنف يكون واقع في الكفر لرده الخبر الصحيح الصريح ، ولكن لا يحكم عليه بالكفر حتى يبين له . وكذا الحكم في الرابع .

أما إن كان العلم قد انتشر ، وأن مثله لا يجهله ، وقد زالت الشبهة ، فهذا يقع عليه الكفر عيناً ، وبهذا نفهم كلام أهل العلم في قولهم نكفِّر النوع ولا نكفِّر العين

حتى تقوم الحجة ، أن كلامهم هذا يتنزل في مثل هذا الباب لا في الشرك والندية والطاغوتية .

وخلاصة الكلام هنا أن الذي يتخذ إلهاً مع الله عزَّ وجل ، ويصرف له ما يختص به سبحانه ، أن هذا ليس بمسلم ، وإن زعم أنه جاهل أو متأول فهذه قرينة دالة على أنه لم يحقق التوحيد ، لأن التوحيد يقين وليس بشك وجهل ، وشاهد الشهادتين لابد أن يكون عالماً بما شهد لا جاهلاً . والتأويل مبني على الجهل . فإذا كان لا عذر في الأول . فمن باب أوْلى أن لا يكون التأويل عذراً .

كفر العمل

لقد انعقد إجماع أهل السنة : على أن الكفر كما أنه يكون بالاعتقاد ، فكذلك يكون بالقول والعمل . وهذا الإجماع قد تواترت به النصوص الشرعية وكثرت فيه مقالات أهل العلم وتأصيلاتهم ومصنفاتهم من السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وكفر العمل ينقسم إلى قسمين :

١ ـ إلى ما يضاد الإيمان وهو (الأكبر) .

٢ ـ وإلى ما لا يضاده وهو (الأصغر) وهو كفر النعمة .

يقول ابن القيم رحمه الله : (وأما كفر العمل : فينقسم إلى ما يضاد الإيمان وإلى ما لا يضاده)أهـ .(١)

ومثلوا على الكفر الذي يضاد الإيمان : بالسجود للصنم ، وإلقاء المصحف في القاذورات ، والاستهزاء بالله ودينه ، وغير ذلك .

واعتبروا السجود للصنم كفراً لكون السجود عباده محضة خالصة لله تعالى صرفت لغيره سبحانه ، وكل عبادة محضة خالصة لله فإن صرفها لغيره يُعد شركاً وكفراً به جل وعلا .

مثال ذلك : عبادة القيام وعبادة التحاكم ، فقد بيَّن الله عز وجل في كتابه العزيز أن فعل القيام على وجه السكون عبادة له جل وعلا ، وكذا التحاكم فإنه عبادة لا تكون إلا لله عز وجل وشرعه ، كالسجود .

---

(١) كتاب الصلاة لابن القيم ص ٧٢ .

قال تعالى في السجود : ﴿**فاسجدوا لله**﴾ (النجم) .

وقال تعالى في القيام : ﴿**وقوموا لله**﴾ (البقرة) .

وقال تعالى في التحاكم : ﴿**إن الحكم إلا لله**﴾ (يوسف) .

فبين المولى سبحانه أن السجود حق له وهو عبادة كما أن القيام حق له وهو عبادة ، والتحاكم حق له وهو عبادة ، وهذا واضح في قوله تعالى «لله» في جميع هذه الآيات .

وكذا قال الرب عز وجل في الصلاة والنسك الذي هو الذبح : ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)**﴾ (الأنعام) .

فتأمل قوله «لله» في جميع هذه الآيات ، وكل ما هو لله عز وجل ، فإن صرفه لغيره يُعد شركاً وكفراً به سبحانه ، فينبغي على المسلم الفطن أن يتدبر هذه الآيات ، ويقف عليها ، ويحرك عقله ، ولا يجعل قلبه مقفلاً في فهم هذه الآيات : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ .

ولا يكن إمعة يقلد دينه الرجال سيما في أمر التوحيد والشرك ، وقد ذم السلف رضي الله عنهم من كان هذا حاله .

ولا يكن مثل هؤلاء الذين طمس الله قلوبهم وأبصارهم عن فهم هذه الآيات حتى جاؤوا بهذه الأحكام المتناقضة في الدين ، منها قولهم :

أولاً : إن الذي يسجد للطاغوت ، ويصرف عبادة السجود للوثن هو مشرك كافر ، ولا يلزم من فعله هذا الاعتقاد أو الاستحلال .

أما الذي يقوم للعَلَم ، ويصرف عبادة القيام للوثن ويتحاكم إلى الطاغوت ، ويصرف عبادة التحاكم إلى غير الله وشرعه . فهذا عندهم يكون مسلم عاص ، لا يكفر حتى يعتقد أو يستحل .

ثانياً : قولهم : أن الذي يتحاكم إلى التوراة والإنجيل شريعة الله المنسوخة والتي أنزلها الله على رسله عليهم الصلاة والسلام : أنه يكون كافراً بالله .

وأما الذي يتحاكم إلى شريعة الشيطان التي أوحاها على أوليائه من شياطين الإنس : فإن هذا يكون مسلم عاص .

وقد نقضوا بذلك وهدموا إجماع الأمة الإسلامية ، بل إجماع العقلاء .

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية :

(فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر ، فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه؟ ! من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين)أهـ .[١]

(والياسا) هو حكم التتار وحكم جينكيز خان المخالف لحكم الله ، والذي أوحى به الشيطان على لسانه .

ثالثاً : قولهم : أن الذي يشرع في الصلاة ، والصيام ، والحج ، فيبدل مثلاً : الصلاة الرباعية فيجعلها خماسية ، ويجعل الثلاثية ثنائية ، ويبدل في مناسك الحج ، ومواقيت الصيام ، فيجعل الصيام مثلاً في شوال بدلاً من رمضان ، وغير ذلك ، أن الذي يفعل ذلك عندهم يكون كافراً بالله العظيم حتى لو لم يعتقد ، أو يستحل ، أو يفضل .

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٢٨) .

أما الذي يبدل في سائر الشرائع . في الحدود ، والقصاص ، وغير ذلك ، فهذا عندهم مسلم عاص ، لا يكفر حتى يعتقد أو يستحل .

إلى غير ذلك من الأحكام المتناقضة التي لا تستقيم في عقول الناس وأذهانهم فضلاً عن دينهم .

الشرك

معناه وأنواعه وأقسامه

أصل الشرك في اللغة : من الشِّركة ، والتشارك : وهي مخالطة الشريكين ، وقد اشترك الرجلان وتشاركا إذا شارك أحدهما الآخر .

وأما معنى الشرك في الشرع : فهو أن يجعل العبد شريكاً لله تعالى في ربوبيته ، أو أسمائه وصفاته ، أو ألوهيته وعبادته .

أقسام الشرك

وينقسم الشرك إلى قسمين :

الأول : شرك أكبر مخرج من الملة . **الثاني** : شرك أصغر غير مخرج من الملة .

أما القسم الأول : وهو الشرك الأكبر : فقد تقدم تعريفه وهو أن يجعل العبد خالص حق الله تعالى لغيره من الخلق ، فيشركه في هذا الحق ، وهو موجب لصاحبه الخلود في النار ، والحرمان من دخول الجنة ، وحبوط العمل بالكلية ، قال تعالى : ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢)**﴾ (المائدة)

وقال تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)**﴾ (النساء) .

وقال تعالى عن أنبيائه : ﴿**ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)**﴾ (الأنعام) .

وقال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)**﴾ (الزمر) .

أما القسم الثاني : وهو الشرك الأصغر : فهو الذي لا يهدم أصل التوحيد ، وصاحبه يكون مسلماً ولكنه ناقص التوحيد .

فالشرك الأصغر : هو كل ما كان ذريعة ووسيلة إلى الوقوع في الشرك الأكبر . وهو نوعان :

الأول : شرك ظاهر . **والثاني** : شرك خفي .

أولاً: الشرك الظاهر

وهو أن يأتي الإنسان بألفاظ وأفعال تقتضي في الظاهر التشريك مع الله عز وجل ، ولا تصل إلى حد الشرك الأكبر ، لأن هذه الأفعال ليست هي أمور قد اختص الله تعالى بها ، كأفعاله سبحانه الخاصة بربوبيته ، أو شيء من صور العبادة ، فإن صرف شيئاً من هذه الأمور يُعد شركاً وكفراً به سبحانه ، ولا يلزم من ذلك الاعتقاد ، إذ لا يشترط ذلك إلا الجهمية ، وإنما هي ألفاظ وأفعال تصدر من الإنسان قد تدل على الشرك وقد لا تدل عليه ، لذلك يشترط فيها إظهار الاعتقاد (وهو ما وقر في القلب والنفس) .

فالشرك الأكبر : هو صرف شيء من خصائص الله عز وجل لغيره .

والشرك الأصغر : ليس فيه صرف شيء من خصائص الله لغيره ، وإنما هو ـ كما تقدم ـ ألفاظ وأفعال تصدر من الإنسان قد تدل على الشرك وقد لا تدل عليه .

مثال ذلك : الحلف بغير الله ، فإن الحلف (لفظ) ليس بعبادة ، وإنما العبادة : التعظيم المقرون بهذا الحلف .

فالحلف : لفظ قد يدل على التعظيم وقد لا يدل عليه ، لذا اشترط أهل العلم إظهار التعظيم للمحلوف به . أي إظهار ا العبادة للحكم على الحالف بالكفر ، لأن التعظيم عبادة قلبية خفية .[1]

وأمثلة الشرك الأصغر كثيرة قد بينها أهل العلم في (كتب العقائد ومظاهر الشرك) .

ومنها أيضاً : قول الرجل : ما شاء الله وشئت ، ولولا الله وفلان ، ونحو ذلك ،

(١) وقد جاء البيان بالتفصيل في مثل هذه المسألة في مبحث الشبهات في الرسالة السادسة من هذه السلسلة ، عند شبهة : قياس الحلف بغير الله على التحاكم إلى الطاغوت .

وجعل العبد بهذا اللفظ مشيئة غير الله مساوية لمشيئة الله . والصحيح أن يقول : ما شاء الله ثم شئت ، ولولا الله ثم فلان ، وذلك أن (الواو) تقتضي التسوية ، و(ثم) تقتضي التبعيَّة ، أي أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿**وما تشاؤون إلا أن يشاء الله**﴾ (الإنسان : ٣٠) ، ومنها أيضاً تعليق التمائم ، والحجب ، وغير ذلك .

ثانياً: الشرك الخفي

أما النوع الثاني من أنواع الشرك الأصغر : فهو الشرك الخفي : وهو كل ما خفي في القلب أو على النفس من إدراك مثل هذا النوع من الشرك ، ومنه الرياء .

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال ، فقال : «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال**»؟ ، **قال : فقلنا : بلى يا رسول الله ، قال** : «**الشرك الخفي : أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل**» (رواه أحمد وابن ماجه) .

وقال رسول الله ﷺ «**الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصفا**» (رواه الترمذي) .

وقال رسول الله ﷺ : «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» **قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال** : «**الرياء**» (رواه أحمد) .

قال تعالى : ﴿**يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً**﴾ (النساء : ١٤٢) .

وقال تعالى : ﴿**الذين يراؤون ويمنعون الماعون**﴾ (الماعون) .

وقال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ**

فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ (البقرة) .

وقال تعالى : ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾** (الكهف) .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ في الحديث القدسي الذي يرويه عن الله عز وجل أنه قال : «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» .

وكفارة هذا النوع من الشرك هو قوله ﷺ : «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم ، وأستغفرك من الذنب الذي لا أعلم**» (رواه أحمد) .

أنواع الشرك

والشرك الأكبر خمسة أنواع :

النوع الأول : الشرك في ربوبية الله تعالى وأسمائه وصفاته .

قال تعالى : ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** (٣١)﴾ (التوبة) .

وقال : ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (٢١)﴾ (الشورى) .

النوع الثاني : الشرك في ألوهية الله تعالى وعبادته ، وذلك بصرف شيء من صور العبادة لغير الله .

قال تعالى : ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** (١٠٦)﴾ (يوسف) .

وقال تعالى : ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ (النساء : ٣٦) .

وقال تعالى : ﴿**قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ** (٣٦)﴾ (الرعد) .

النوع الثالث : شرك الاتباع : قال تعالى : ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** (٣)﴾ (الأعراف) .

وقال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** (٢٠)﴾ (سبأ) .

وقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ (الحج) .

النوع الرابع : شرك الطاعة :

قال تعالى : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ (الأنعام) .

وقال تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ والفرق بين شرك الطاعة وشرك الاتباع : أن الاتباع أعم من الطاعة ، فإن الطاعة لا تكون إلا بأمر ، أما الاتباع فيكون بأمر ويكون بغير أمر ، فكل مطيع متبع وليس كل متبع مطيع ، لأن الإنسان قد يكون متبعاً لقوم على دين أو غيره ولا يلزم من ذلك أنه يكون قد أمروه فأطاعهم .

النوع الخامس : شرك النية والإرادة والقصد :

قال تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (هود) .

الظلم

معناه وأقسامه

الظلم في اللغة : هو وضع الشيء في غير موضعه ، وهو الجور .

وأصل الظلم : هو الجور في حق الله تعالى ، والعدل عن توحيده ، والشرك به ، وعدم جعل ما هو من خالص حقه سبحانه له وحده ، بل يُجعل لغيره منه نصيب ، وهذه هي حقيقة الظلم ، وهذا هو أصله : وهو الجور في حق الله تعالى والإشراك به عز وجل ، قال تعالى عن لقمان : ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (١٣)﴾ (لقمان) .

أقسام الظلم

وينقسم الظلم إلى قسمين :

الأول : ظلم أكبر مخرج من الملة .

والثاني : ظلم أصغر غير مخرج من الملة .

أما القسم الأول : وهو الظلم الأكبر المخرج من الملة : فهو ـ كما تقدم ـ الكفر بالله ، والشرك به سبحانه .

قال تعالى : ﴿**والكافرون هم الظالمون**﴾ (البقرة) .

وقال تعالى : ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (١٣)﴾ (لقمان) .

وقال تعالى : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** (٨٢)﴾ (الأنعام) .

قال ابن عباس وجماعة أهل التفسير : لم يخلطوا إيمانهم بشرك .

أما القسم الثاني : وهو الظلم الأصغر الغير مخرج من الملة ، فهو نوعان :

الأول : ظلم النفس .

والثاني : ظلم الغير

أما النوع الأول : وهو ظلم النفس ، فهو أن يظلم الإنسان نفسه بفعل المعاصي ، ويسرف على نفسه في ارتكاب الذنوب التي نهى الله عز وجل عنها ، فهو بهذا المعنى وهذا الوصف يكون ظالماً لنفسه .

قال تعالى : ﴿**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾ (الطلاق : ١) .

وقال تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠)﴾ (النساء) .

وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾ (آل عمران) .

وقال تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)﴾ (فاطر) .

النوع الثاني : وهو ظلم الغير : فهو أن يظلم الإنسان غيره من الناس والخلق .

قال تعالى : ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)﴾ (الشورى) .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾ (النساء) .

وفي الحديث القدسي الذي يرويه مسلم في صحيحه أن الله عز وجل يقول : «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**» .

الفسق
معناه وأقسامه

وأصل الفسق في اللغة : هو الخروج ، يقال فسق الشيء ، إذا خرج عن طبيعته .

والفسق في الشرع : هو الخروج عن طاعة الله ، سواء كان خروجاً كلياً أو جزئياً .

أقسام الفسق

وينقسم الفسق إلى قسمين :

الأول : فسق أكبر مخرج من الملة .

الثاني : فسق أصغر غير مخرج من الملة .

أما القسم الأول : وهو الفسق الأكبر : فهو الكفر بالله ، وهو الفسق الذي يخرج صاحبه عن ملة الإسلام ، وهو فسق كلي ، ومنه فسق إبليس لعنه الله تعالى .

قال تعالى : ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾ (الكهف : ٥٠) .

وقال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ** (٩٩)﴾ (البقرة) .

وقال تعالى : ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ** (٢٠)﴾ (السجدة)

أما القسم الثاني : وهو الفسق الأصغر : فهو الذي لا يخرج صاحبه عن ملة الإسلام ، وهو الخروج عن طاعة الله تعالى بفعل المعاصي والذنوب التي هي دون الكفر ، وهو فسق جزئي ، وقد وصف الله تعالى أهل الإيمان الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء بهذا الوصف ، فقال سبحانه : ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** (٤)﴾ (النور) .

وقال تعالى في الحج : ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** (١٩٧)﴾ (البقرة) .

النفاق

معناه وأقسامه

النفاق في اللغة : مأخوذ من النفق : وهو السرب والمخرج الذي في الأرض يُستتر فيه ، ويشق إلى مكان آخر ومخرج آخر ، ومنه قوله عز وجل : ﴿**فَإِن اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ**﴾ (الأنعام : ٣٥) .

وأصل النفاق : هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر والشر ، وسمي المنافق منافقاً : لأنه يدخل في الإسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه .

أقسام النفاق

وينقسم النفاق إلى قسمين :

الأول : نفاق أكبر مخرج من الملة .

والثاني : نفاق أصغر غير مخرج من الملة .

أما القسم الأول : وهو النفاق الأكبر : فهو الذي ينقل صاحبه عن ملة الإسلام ، ويوجب له الخلود في النار ، والحرمان من دخول الجنة ، وهو إبطان الكفر والشر وإظهار الإسلام .

قال تعالى : ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** ﴿٦٨﴾﴾ (التوبة) .

وقال تعالى : ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴿١٤٥﴾﴾ (النساء) .

وهذا القسم من النفاق ستة أنواع :

١ ـ تكذيب الرسول ﷺ .

٢ ـ تكذيب بعض ما جاء به الرسول ﷺ .

٣ ـ بغض الرسول ﷺ .

٤ ـ بغض بعض ما جاء به الرسول ﷺ

٥ ـ المسرة بانخفاض دين الرسول ﷺ .

٦ ـ الكراهية لانتصار دين الرسول ﷺ .

أما القسم الثاني : وهو النفاق الأصغر ، فهو الذي لا ينقل صاحبه عن ملة الإسلام ، ويظل صاحبه مسلماً ، ويبقى معه إيمان ، ولكن تعرض عليه خصلة من خصال النفاق ، ومنه قول النبي ﷺ : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان» (رواه البخاري) .

وفي رواية : «وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر» (رواه البخاري) .

وهو أيضاً شعب ، ومنه قول النبي ﷺ : «من لم يغزُ أو يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق» .

الإيمان

أصل الإيمان في اللغة : هو التصديق . قال تعالى كما في قول أخوة يوسف لأبيهم : ﴿**وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين**﴾ (يوسف :١٧) .

وأصل الإيمان في الشرع : هو أن يؤمن العبد بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، كما عرفه نبينا ﷺ في حديث جبريل المشهور ، وعرَّفه ﷺ بقوله أيضاً كما في حديث وفد عبدالقيس هو «**شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس**» .

ولا يصح الإيمان عند الإنسان إلا بالاعتقاد الذي هو التصديق والقول الذي هو الإقرار والعمل الذي هو فعل أعمال الجوارح .

لذلك عرفه أهل السنة بقولهم : اعتقاد بالجنان ، وقول باللسان ، وعمل بالأركان : (يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية) .

فهو ـ كما جاء عن السلف ـ (قول وعمل) : أي قول القلب وعمله ، وقول اللسان وعمله ، وعمل الجوارح .

(فقول القلب) هو الاعتقاد والتصديق (وعمله) النية والمقصد ، والمحبة ، والتعظيم ، والخوف ، والرجاء ، والإخلاص وغير ذلك من أعمال القلوب الباطنة والعبادات القلبية .

(وقول اللسان) هو الإقرار والنطق (وعمله) هو الدعاء ، والذكر ، وقراءة القرآن ، وغير ذلك .

(وعمل الجوارح) هو السجود ، والقيام ، والطواف ، والتحاكم ، والجهاد ، والحج ، وغير ذلك مما هو متعلق بأفعال الجوارح .

والأدلة الشرعية على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان كثيرة ومستفيضة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، منها :

قوله تعالى : ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥)**﴾ (السجدة) .

وقوله تعالى : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)**﴾ (الحجرات)

وقال تعالى : ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)**﴾ (النساء) .

وقال تعالى : ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)**﴾ (النور) .

وقال تعالى : ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾ (البقرة : ١٤٣) .

وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله : «إيمانكم» أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحول القبلة .

قال القرطبي رحمه الله : (اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس)أهـ .[١]

ومن السنة قوله ﷺ : كما في حديث وفد عبدالقيس المروي في البخاري ـ عندما أتوا النبي ﷺ فأمرهم بأربع : أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال ﷺ : «**أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟**» **قالوا الله ورسوله أعلم : قال** «**شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس**» (رواه البخاري) .

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ١٥٧) .

ومنها ما رواه البخاري أيضاً في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نُهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن**» .

ومنها ما رواه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : «**والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن**» قيل من يا رسول الله؟ قال : «**الذي لا يأمن جاره بوائقه**» .

ومنها ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : «**الطهور شطر الإيمان**» .

ومنها ما رواه أيضاً في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : «**الإيمان بضع وسبعون شعبة . فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**» .

أي من العمل ما يتعلق بأصل الإيمان ، ومنه ما يتعلق بكماله ، فهو بضع وسبعون شعبة ، أفضلها وأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق .

فالصلاة (إيمان) وتركها متعلق بأصله ، فلا يصح الإيمان إلا بالصلاة .

وتحكيم الرسول والشرع (إيمان) كما قال تعالى : ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك**﴾ (النساء : ٦٥) .

وترك هذا التحكيم متعلق بأصله ، فلا يصح الإيمان إلا به .

وبر الوالدين وصلة الرحم (إيمان) وترك ذلك متعلق بكماله ، فلا يكمل الإيمان ولا يتحقق الإيمان الواجب إلا بذلك .

فليس كل من خالف أمر الله يكون منتف عنه الإيمان بالكلية ، لأن الإيمان شعب كثيرة ، فهو يتجزأ . منه ما هو ركن ، ومنه ماً هو واجب ، ومنه ما هو مستحب . بخلاف الخوارج الذين يرون بأن الإيمان (حقيقة واحدة وشيئاً واحداً لا يتجزأ ولا

يتبعض) متى ذهب بعضه ذهب جميعه ، ومتى زالت شعبة من شعبه فقد زال أصل الإيمان ، ومتى ارتكب الإنسان شيئاً مما نهى الله عنه من الذنوب فقد كفر وخرج عن الإسلام .

وأما المرجئة والجهمية ـ الذين هم طرفا نقيض للخوارج ـ فقد أثبتوا هذا الأصل الفاسد (أن الإيمان حقيقة واحدة لا يتجزأ) وأخرجوا العمل عن مسماه ، لأن ذلك ـ عندهم ـ يقتضي فيه تكفير صاحب الكبيرة (وهو ما تقول به الخوارج) فإن العمل ـ بزعمهم ـ إذا أصبح جزءاً من الإيمان فإن في ذهاب بعضه ذهاب لجميعه ، فأخرجوا لذلك العمل عن مسمى الإيمان .

يقول ابن تيمية رحمه الله : «وأصل نزاع هذه الفرق في الإيمان من الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم ، أنهم جعلوا الإيمان شيئاً واحداً إذا زال بعضه زال جميعه ، وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه ، فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه ، كما قال النبي ﷺ : «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من الإيمان» .

ثم قالت «الخوارج ، والمعتزلة» الطاعات كلها من الإيمان فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان ، فذهب سائره فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان . وقالت «المرجئة ، والجهمية» : ليس الإيمان إلا شيئاً واحداً لا يتبعض إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية أو تصديق القلب واللسان كقول المرجئة ، قالوا : لأنا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جزءاً منه ، فإذا ذهبت ذهب بعضه ، فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان ، وهو قول المعتزلة والخوارج .أهـ(١) .

ويضاد الإيمان الكفر ، وهو أيضاً أصل وشعب ، وشعبه كثيرة ، فكما أن شعب الإيمان إيمان ، فكذلك شعب الكفر كفر .

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥١٠) .

فالصدق مثلاً شعبة من شعب الإيمان ، والكذب شعبة من شعب الكفر ، والمعاصي كلها من شعب الكفر ، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان .[١]

وكفر العمل ينقسم إلى قسمين :

١ ـ إلى ما يضاد الإيمان .

٢ ـ وإلى ما لا يضاده .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : «وأما كفر العمل فينقسم إلى ما يضاد الإيمان وإلى ما لا يضاده»أهـ .[٢]

---

(١) انظر كتاب الصلاة لابن القيم ص ٥٣ .

(٢) كتاب الصلاة لابن القيم ص ٥٥ .

فصل في ذكر
أن الإنسان إذا اعتقد عقيدة الإيمان والتوحيد وأقر بذلك ثم جاء بما يناقض هذا الإيمان من أفعال فإنه لا ينفعه قول لا إله إلا الله ولا ما ادعاه من الإيمان والإسلام

وفي هذا يقول الله عز وجل : ﴿**وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨)**﴾ (النور) .

وهؤلاء قد ادعوا صلاح السريرة والإيمان وقد جاؤوا بما يناقض هذا الإيمان من الأعمال المخالفة له . فهم قالوا في أول الآية «آمنا» وقال تعالى في آخرها : «وما أولئك بالمؤمنين» ، وذلك لكونهم أعرضوا عن التحاكم إلى الشرع وجاؤوا بما يناقض هذا الإيمان ، من أفعال لا يستقيم معها إيمان ولا إسلام فلم يكونوا بذلك مؤمنين ولا مسلمين . كما قال تعالى : ﴿**وما أولئك بالمؤمنين**﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿**وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨)**﴾ (النور) .

ومن أمثال ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠)**﴾ (النساء) .

وهؤلاء أيضاً قد جاؤوا بما ينقض هذا الإيمان ، ويناقضه من إرادة التحاكم إلى الطاغوت ، فسمى الله تعالى إيمانهم زعماً ونفى عنهم الإيمان حتى قال : ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)**﴾ (النساء) .

ومن أمثال ذلك في القرآن أيضاً قوله سبحانه وتعالى : ﴿**وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** (٨١)﴾ (المائدة) .

فبين الله تعالى أن نصرة الكافرين باتخاذهم أولياء ينافي أصل الإسلام ، وأن هناك تلازم ما بين الاعتقاد والعمل . إذ يلزم من الإيمان بالله ودينه ونبيه بغض الكافرين وعداوتهم فمن جاء بما يناقض هذا الإيمان لم ينفعه إيمانه وإسلامه .

وأيضاً فإن الآية ليس فيها ـ كما يظن بعض الجهلة من المرجئة وغيرهم ـ بأن تعليل كفر هؤلاء من أجل عدم وجود الإيمان في قلوبهم ، وإنما هو بيان من الله عز وجل بأن عدم وجود الإيمان في قلوبهم هو سبب من أسباب كفرهم ، فهم جمعوا ما بين كفرين :

الكفر الباطن وهو (السبب الأول) ، من عدم وجود الإيمان في القلب .

والكفر الظاهر وهو (السبب الثاني) من موالاة الكافرين ونصرتهم .

ومن أمثال ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ** (٦٥) **لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** (٦٦)﴾ (التوبة) .

وهؤلاء أيضاً قد جاؤوا بما ينقض إيمانهم ويناقضه ، فلم يلتفت الله تعالى إلى اعتذارهم ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ ولم يقبل منهم تلك الأقاويل التي اعتذروا بها بأنهم لم يقصدوا بذلك الإساءة للدين ، أو يعتقدوا حل ذلك ، ولم يلتفت إلى تلك المقاصد . مع أنه سبحانه عليم بما في صدورهم ، فكيف بنا نحن أن نلتفت إلى تلك المقاصد القلبية الباطنة ، كقصد البغض للدين ومحبة الكفر ، وقصد التقرب ، وقصد التعظيم ، وغير ذلك .

ومن أمثال ذلك في القرآن قوله تعالى : ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا** (١٤٠)﴾ (النساء) .

وهذا في حق أناس لم يتكلموا أصلاً بالكفر وإنما جلسوا في مجلس خاض فيه أهله بآيات الله فلم يقوموا من ذلك المجلس فشملهم ذلك الوعيد المكفِّر ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ أي حكمكم حكمهم أنكم كافرين . (قاله أهل التفسير) .

فكيف بمن خاض بالكفر وتكلم به .

والقرآن مليء بمثل هذه النصوص التي تبين وتأصِّل أن التعامل في قضايا الكفر والإيمان يكون على الظاهر ، وأن المقاصد ليس لها اعتبار في مثل هذا الباب (باب الوقوع في المكفرات) إلى في حالة الإكراه (كما سوف يأتي بشروطه) في الرسالة السادسة ، وقد قال ﷺ : «إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم» (رواه البخاري) .

يقول الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن أبا بطين رحمه الله : (فإذا عرف المسلم عظم شأن هذه الكلمة ، وما قيدت به من القيود ، ولابد من ذلك أن يكون اعتقاداً بالجنان ، ونطقاً باللسان ، وعملاً بالأركان ، فإن اختل نوع من هذه الأنواع لم يكن الرجل مسلماً . كما ذكر الله ذلك وبينه في كتابه ، فإذا كان الرجل مسلماً وعاملاً بالأركان ثم حدث منه قول أو فعل أو اعتقاد يناقض ذلك لم ينفعه ذلك ، كما قال الله تعالى للذين تكلموا بالكلام في غزوة تبوك : ﴿**لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** (٦٦)﴾ (التوبة) ، وقال تعالى في حق الآخرين : ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ**

إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤)﴾)أهـ .[١]

ويقول الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله «فلا بد في شهادة : أن لا إله إلا الله ، من اعتقاد بالجنان ، ونطق باللسان ، وعمل بالأركان ، فإن اختل نوع من هذه الأنواع ، لم يكن الرجل مسلماً ، فإذا كان الرجل مسلماً وعاملاً بالأركان ثم حدث منه قول ، أو فعل أو اعتقاد يناقض ذلك لم ينفعه قول لا إله إلا الله ، وأدلة ذلك في الكتاب والسنة وكلام أئمة الإسلام ، وأكثر من أن تحصر)أهـ .[٢]

---

(١) مجموعة التوحيد ـ الرسالة الثامنة ـ أسباب نجاة السؤول من السيف المسلول للشيخ عبدالله أبابطين .

(٢) الدرر السنية (٢/ ٣٥٠) .

هذه الآية قاصمة ظهور مرجئة وجهمية هذا العصر

﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾

وفي هذه الآية قصم الله ظهور المرجئة والجهمية ومن هم على شاكلتهم من جهمية هذا العصر الذين تولوا الطواغيت وجعلوهم أولياء أمور ، فلم يجعل الله عز وجل في هذه الآية شيئاً من أعمال القلوب له اعتبار ـ فيمن جاء بشيء من المكفرات ـ إلا من كان مكرهاً ، ولم يستثني الله تعالى فيمن اطمئن قلبه بالإيمان إلا المكره ، كما سوف يأتي شرح هذه الآية في كلام أئمة الإسلام .

واطمئنان القلب بالإيمان يشمل كل ما وقر في القلب من الاعتقاد وأعمال القلوب الباطنة ، والتي منها : (المحبة ، والتعظيم ، والنية ، والقصد ، والتقرب ، وغير ذلك) .

وهذه الأعمال القلبية لم يجعل الله منها شيئاً له اعتبار إلا في حالة الإكراه بشروطه .

فلا الاعتقاد الذي هو (قول القلب) له اعتبار .

ولا التعظيم الذي هو (عمل القلب) له اعتبار .

ولا محبة الكفر التي هي (عمل القلب) لها اعتبار .

ولا النية الصالحة التي هي (عمل القلب) لها اعتبار .

ولا المقصد الحسن الذي هو أيضاً (عمل القلب) له اعتبار .

ولا التقرب وقصد التقرب الذي هو (عمل القلب) له اعتبار .

إذا وقع الإنسان بشيء من المكفرات أو صرف شيئاً من العبادة لغير الله .

فلو قام إنسان لعَلَم ـ مثلاً ـ وصرف عبادة القيام للعَلَم على هيئة الخشوع الذي هو

السكون ، ثم قال : أنا لم أقصد بهذا القيام تعظيم هذا العلم (والتعظيم عمل من أعمال القلوب ، وكذا المقصد) . فإن هذا لا يلتفت إلى قوله هذا ، لأنه قد صرف العبادة لغير الله ، ولم يكن بهذا الصرف مكرهاً على ذلك ، فلم ينتفع بما قد وقر في قلبه من الطمأنينة بعدم تعظيم هذا العَلَم ، لأنه قد جاء بما يناقض هذا الإيمان .

وكذا لو طاف بقبر وصرف عبادة الطواف حول القبر ، ثم قال : أنا أقصد بهذا الطواف التقرب إلى الله .

فإن هذا لا يلتفت إلى قوله هذا ، وهو بذلك يكون قد أشرك بالله ، ولم ينتفع بهذا العمل القلبي الذي هو (قصد التقرب) واطمئنان قلبه بالإيمان ، مع وجود النقيض .

وكذا لو أقسم على احترام الدساتير والقوانين والطواغيت ثم قال : إني أضمر في نفسي وقلبي عدم احترام هذه الطواغيت واحترام شرع الله وحده ، فإن هذا لا يلتفت إلى قوله هذا .

والمقصود أنه متى جاء الإنسان بشيء من المكفرات وأفعال الشرك ولم يكن مكرهاً على ذلك فإنه يكون مشركاً حتى لو قال : إن قلبه مطمئن بالإيمان ولم يقصد تعظيم غير الله .

وقد قال ﷺ : «**إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم**» .(رواه البخاري)

وروى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : «**إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بأعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمنَّاه وقرَّبناه وليس إلينا في سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته ، ومن أظهر لنا سوءاً لم نؤمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة**» .

ونجد هذا جلياً في فعل النبي ﷺ مع عمه العباس لما خرج مع المشركين في غزوة بدر يكثر سوادهم ، فأسره المسلمون يومئذ فعامله النبي ﷺ معاملة الكفار بأن جعله يفدي نفسه .

روى ابن أبي حاتم وابن جرير في تفسيره عن السدي أنه قال : «لما أسر العباس وعقيل ونوفل . قال رسول الله ﷺ للعباس : «افد نفسك وابن أخيك» فقال يا رسول الله ألم نصلِّ إلى قبلتك ونشهد شهادتك ، قال : «يا عباس إنكم خاصمتم فخصمتم» ثم تلا عليه هذه الآية : ﴿**ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها**﴾ .

وقال العباس للنبي ﷺ : يا رسول الله إن كنت مكرهاً . فقال ﷺ : «أما ظاهرك فكان علينا وأما سريرتك فإلى الله» .

وأصل قصة «فداء العباس وابن أخيه عقيل» مروية في البخاري في كتاب الجهاد ـ باب فداء المشركين ـ من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال : «أتي النبي ﷺ بمال من البحرين فجاءه العباس فقال : يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً فقال «خذ» فأعطاه في ثوبه» .

يقول ابن تيمية رحمه الله : «فالله تعالى أهلك الجيش الذي أراد أن ينتهك حرماته ـ المكره فيهم وغير المكره ـ مع قدرته على التمييز بينهم مع أنه يبعثهم على نياتهم ، فكيف يجب على المؤمنين المجاهدين أن يميزوا بين المكره وغيره وهم لا يعلمون ذلك؟ ! بل لو ادَّعى مدع أنه خرج مكرهاً لم ينتفع بذلك بمجرد دعواه ، كما روي أن العباس بن عبدالمطلب قال للنبي ﷺ لما أسره المسلمون يوم بدر : يا رسول الله إني كنت مكرهاً . فقال : «أما ظاهرك فكان علينا ، وأما سريرتك فإلى الله» أهـ . (مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٠١) .

ولكن ما وقع فيه من اللبس هنا عند الكثير في مثل هذه المسائل هو في عدم الفهم والتفريق ما بين ما يفعل بـ(قصد التعبد) وبين ما يفعل على (وجه التعبد) .

فالأول : متعلق بالباطن ، لأن القصد محله القلب ، وهو عمل من أعمال القلوب .

والثاني : متعلق بالظاهر ، لأن وجه الشيء وصورته تكون في الظاهر وهو عمل من أعمال الجوارح الظاهرة ، فلينتبه لهذا .

فإذا قيل مثلاً : إنسان قائم على (وجه التعبد) أي : قائم في الظاهر على هيئة الخشوع الذي هو السكون ، والخشوع من أجل معاني العبادة .

وأما قوله تعالى في تتمة هذه الآية : ﴿**ولكن من شرح بالكفر صدراً**﴾ فما وجدت بيان في معنى هذه الآية أجمل مما تكلم به علماء الإسلام رحمهم الله تعالى .

يقول ابن حزم رحمه الله : «وليس قول الله عز وجل : ﴿**ولكن من شرح بالكفر صدراً**﴾ على ما ظنوه من اعتقاد الكفر فقط ، بل كل من نطق بالكلام الذي يحكم لقائله عند أهل الإسلام بحكم الكفر لا قارئاً ولا شاهداً ولا حاكياً ولا مكرهاً فقد شرح بالكفر صدراً بمعنى أنه شرح صدره لقبول الكفر المحرم على أهل الإسلام وعلى أهل الكفر أن يقولوه ، وسواء اعتقدوه أو لم يعتقدوه . . .»أهـ .(١)

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : «وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم ومن اتبعه ، فإنه جعل كل من تكلم بالكفر ، من أهل وعيد الكفار . إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان .

فإن قيل : فقد قال تعالى : ﴿**ولكن من شرح بالكفر صدرا**﴾ قيل : وهذا موافق لأولها فإنه من كفر من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدراً ، وإلا ناقض أول الآية آخرها ، ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره ، وذلك يكون بلا إكراه لم يستثن المكره فقط ، بل كان يجب أن يستثنى المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره ، وإذا

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ٢٥٠) .

تكلم بكلمة الكفر طوعاً فقد شرح بها صدراً وهي كفر ، وقد دل على ذلك قوله تعالى : ﴿**يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)**﴾ [التوبة] . فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم : إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له ، بل كنا نخوض ونلعب ، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر ، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام ، ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام .

والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه ، كقوله تعالى : ﴿**وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)**﴾ إلى قوله : ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)**﴾ [النور] فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا ؛ فبين أن هذا من لوازم الإيمان» أهـ .[١]

ويقول أيضاً ـ رحمه الله ـ : «ومعلوم أنه لم يرد بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط لأن ذلك لا يكره الرجل عليه وهو قد استثنى من أكره ولم يرد من قال واعتقد لأنه استثنى المكره وهو لا يكره على العقد والقول وإنما يكره على القول فقط فعلم أنه أراد من تكلم بكلمة الكفر فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم وأنه كافر بذلك إلا من أكره وهو مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً من المكرهين فإنه كافر أيضاً ، فصار من

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٠) .

تكلم بالكفر كافراً إلا من أكره فقال بلسانه كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، وقال في المستهزئين : ﴿**لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ **فبين أنهم كفار بالقول مع أنهم لم يعتقدوا صحته**» أهـ .[١]

وقال ـ رحمه الله ـ : «وأيضاً فإنه سبحانه استثنى المكره من الكفار ، ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره ؛ لأن الإكراه على ذلك ممتنع فعلم أن التكلم بالكفر كفر لا في حال الإكراه .

وقوله تعالى : ﴿**ولكن من شرح بالكفر صدراً**﴾ أي : لاستحبابه الدنيا على الآخرة ، ومنه قول النبي ﷺ : «يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا» والآية نزلت في عمار بن ياسر ، وبلال بن رباح ، وأمثالهما من المؤمنين المستضعفين لما أكرههم المشركون على سب النبي ﷺ ، ونحو ذلك من كلمات الكفر فمنهم من أجاب بلسانه كعمار ، ومنهم من صبر على المحنة كبلال ، ولم يكره أحد منهم على خلاف ما في قلبه بل أكرهوا على التكلم ، فمن تكلم بدون الإكراه ، لم يتكلم إلا وصدره منشرح به» أهـ .[٢]

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ في رسالته كشف الشبهات : «عليك بفهم آيتين من كتاب الله .

أولهما : ما تقدم من قوله : ﴿**لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ فإذا تحققت أن بعض الصحابة غزوا الروم مع رسول الله ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب ، تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر ، أو يعمل به خوفاً من نقص مال ، أو جاه ، أو مداراة لأحد أعظم ممن تكلم بكلمة يمزح بها .

والآية الثانية : قوله تعالى : ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ**

(١) الصارم المسلول ص ٥٢٤ .

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٦٠) .

بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾ (النحل) فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان . وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه ، سواء فعله خوفاً أو مداراة ، أو مشحة بوطنه ، أو أهله ، أو عشيرته ، أو ماله أو فعله على وجه المزح ، أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره . والآية تدل على هذا من جهتين :

الأولى : قوله : ﴿إلا من أكره﴾ فلم يستثن الله إلا المكره . ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على العمل أو الكلام ، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها .

والثانية : قوله تعالى : ﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل ، أو البغض للدين ، أو محبة الكفر وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا ، فآثره على الدين» أهـ .[١]

ويقول الشيخ حمد بن عتيق ـ رحمه الله ـ في رسالته «الدفاع عن أهل السنة والاتباع» رداً على من زعم أنه لا يكون كافراً من تكلم بالكفر إلا إذا اعتقده وشرح به صدره .

قال رحمه الله : «فنقول قد جعلت للعقلاء سبيلاً إلى أن يضحكوا عليك لولا أن اللائق بمن سمع هذا الكلام أن يشتد بكاؤه ويعظم خوفه على دينه . قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى :

واجعل لقلبك مقلتين كلاهما
من خشية الرحمن باكيتان
لو شاء ربك كنت أيضاً مثلهم
فالقلب بين أصابع الرحمن

(١) كشف الشبهات ص ٢٩ .

إلى أن قال : ومن تناقضه أيضاً أنه ذكر أنه لا يكون كافراً إلا من طابت نفسه بالكفر وفتح صدره به ، وقد ذكر قبل ذلك أن الله أباح للإنسان الكفر إذا أُكره عليه . فيقال قاتلك الله يا بهيم إن كنت تزعم أنه لا يكفر إلا من شرح بالكفر صدراً فهل يقدر أحد أن يكره أحداً على تغيير العقيدة وأن يشرح صدره بالكفر وسوف نبين إن شاء الله أن الآية تدل على كفر من قال الكفر وفعله وإن كان يبغضه في الباطن ما لم يكن مكرهاً وأما إذا انشرح صدره بالكفر وطابت نفسه به فذاك كافر مطلقاً مكرهاً أو غير مكره وهذا هو مدلول آية النحل وقصة عمار صريحة في ذلك» أهـ .[1]

(١) الدفاع عن أهل السنة والاتباع ـ ص ٤٧ .

قاصمة أخرى قصم الله بها
ظهور المرجئة والجهمية

وأما قوله تعالى أيضاً في تتمة آية الإكراه : ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)**﴾ (النحل) .

فهي قاصمة أخرى قصم الله بها ظهور المرجئة والجهمية الذين يريدون أن يحصروا الكفر بانشراح الصدر ويفسروا هذا الانشراح بمحبة الكفر وبغض الدين ، فبين الله عز وجل أن استحباب الحياة الدنيا كان هو سبب كفرهم وليس بغض الدين .

فحكم الله بكفرهم في آخر الآية بقوله تعالى : ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ .

وبين سبب كفرهم في أول الآية بقوله تعالى : ﴿**ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة**﴾ .

وقد تقدم قول الشيخ محمد بن عبدالوهاب في رسالته كشف الشبهات في تفسير هذه الآية : قال رحمه الله : (فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد ، أو الجهل ، أو بغض للدين ، أو محبة الكفر ، وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا ، فآثره على الدين)أهـ .

من هم المرجئة

المرجئة : هم الذين أرجأوا العمل وأخروه عن الإيمان ، وأخرجوه عن مسمى الإيمان ، فلم يجعلوه جزءاً منه وركناً ينتفي الإيمان بانتفائه ، ولهذا سموا بالمرجئة . فإن أصل الإرجاء في اللغة : هو التأخير . قال تعالى : ﴿**قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ** (١١١)﴾ (الأعراف) .

«أرجه» أي أخِّره .

يقول إسحاق بن راهويه رحمه الله : (غلت المرجئة حتى صار من قولهم : إن قوماً يقولون : من ترك الصلوات المكتوبات ، وصوم رمضان ، والزكاة ، والحج ، وعامة الفرائض من غير جحود لها : إنا لا نكفره ، يرجأ أمره إلى الله بعد ، إذ هو مقر . . فهؤلاء الذين لا شك فيهم . يعني : أنهم مرجئة)أهـ .[١]

والمرجئة أشد فتنة من فتنة الخوارج ، وأعظم ضرراً على الدين من الخوارج ، كما جاءت الآثار عن السلف في ذلك ، ولما يتضمنه معتقدهم الفاسد من هدم للدين وأصوله وأحكامه .

وقد خرجت المرجئة عن معتقد أهل السنة والجماعة ، فإن الإيمان عند أهل السنة : هو اعتقاد وقول وعمل . وكذا الكفر فإنه يكون بالاعتقاد والقول والعمل ، وخروج المرجئة عن معتقد أهل السنة هو في قولهم : أن العمل ليس من الإيمان ، وأن الكفر لا يكون كفراً إلا في الباطن ، إذا دل هذا الكفر على الجحود القلبي والاستخفاف القلبي .

(١) أخرجه ابن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٩٢٩) .

فصل

إذا رأيت من يشترط في الكفر الأمور الباطنة من أعمال القلوب (كالمقصد، والنية، والتعظيم، والمحبة وغير ذلك) في تكفير من صرف العبادة لغير الله فاعلم أنه مرجئ، وإن كان من العلماء فهو من مرجئة الفقهاء الذين تكلم فيهم أهل العلم

إن المرجئ ـ كما تقدم ـ هو الذي يبحث عمَّا في القلب من أمور ومقاصد ليشترط في الكفر وبمن وقع في شيء من المكفرات (عمل القلب) كالمقصد والنية ، وعبادات القلوب . والتي منها التعظيم ، والمحبة ، وما يضادها من محبة الكفر وبغض الدين والاستخفاف القلبي .

أو يشترط (قول القلب) الذي هو الاعتقاد والتصديق . فيكون من الجهمية الذين هم غلاة المرجئة .

فهو يبحث دائماً عمَّا في القلوب ، ويفتش دائماً عن المقاصد الباطنة التي لا يعلمها إلا الله عز وجل ، وقد قال النبي ﷺ : «إن لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم» رواه البخاري .

وروى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : «إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي ، في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بأعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمنَّاه وقربناه وليس إلينا في سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته ، ومن أظهر لنا سوءاً لم نؤمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنه» رواه البخاري .

لذلك نجد كثيراً من الفقهاء الجهابذة الذين يشار إليهم بالبنان ، والذين رسخوا في علم الفقه ، وليس عندهم رسوخ في علم التوحيد والإيمان قد عُدّوا من المرجئة ، وسُمُّوا بـ(مرجئة الفقهاء) لكونهم جعلوا الإيمان هو اعتقاد وإقرار ، وأما أعمال الجوارح الظاهرة فهي ليست من الإيمان عندهم إلا (عمل القلب) .

يقول ابن تيمية رحمه الله (ولهذا كان جماهير المرجئة على أن عمل القلب داخل في الإيمان كما نقله أهل المقالات عنهم ، منهم الأشعري ، فإنه قال في كتابه في (المقالات) اختلفت المرجئة في الإيمان ما هو؟ وهم «اثنتا عشرة فرقة»)أهـ .[1]

وذلك أنه لو جاء الإنسان ـ عندهم ـ بشيء من المكفرات المتعلقة بأعمال الجوارح الظاهرة فهذا عندهم ليس كفراً بذاته . إلا إذا دل على الكفر القلبي والعمل القلبي المكفِّر كالاستخفاف وغير ذلك .

يقول ابن تيمية رحمه الله : «وكان يزعم (أي ابن الراوندي) أن السجود للشمس ليس بكفر ولا السجود لغير الله كفر ولكنه عَلَم على الكفر ، لأن الله بيَّن أنه لا يسجد للشمس إلا كافر»أهـ .[2]

ويقول أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر البغدادي الإسفراييني في كتابه : «الفرقُ بين الفرق» : (ذكر المريسية منهم . هؤلاء مرجئة بغداد من أتباع بشر المريسي ـ إلى أن قالَ ـ وكان يقول في الإيمان إنه هو التصديق بالقلب واللسان جميعاً كما قال ابن الراوندي في أن الكفر هو الجحد والإنكار وزعما أن السجود للصنم ليس بكفر ولكنه دلالة على الكفر» أهـ .[3]

ويقول ابن حزم رحمه الله : (قال أبو محمد : ونقول للجهمية والأشعرية في

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٨)

(٣) الفرق بين الفرق ص١٩٢ .

قولهم : إن جحد الله تعالى وشتمه وجحد الرسول ﷺ إذا كان كل ذلك باللسان فإنه ليس كفراً لكنه دليل على أن في القلب كفراً .

أخبرونا عن هذا الدليل الذي ذكرتم أتقطعون به وتثبتونه يقيناً ولا تشكون في أنه فيه جحد للربوبية ، وللنبوة؟ أم هو دليل مدخول ويدخله الشك ويمكن ألا يكون في قلبه كفر؟ ولا بد من أحدهما . فإن قالوا : إنه دليل لا نقطع به قطعاً ، ولا نثبته يقيناً .

قلت : فما بالكم تحتجون بالظن الذي قال تعالى فيه : ﴿**وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** (٢٨)﴾ [النجم] .

وإن قالوا : بل نثبت بهذا الدليل ونقطع به ، ونوقن أن كل من أعلن بما يوجب إطلاق اسم الكفر عليه في الشريعة فإنه جاحد بقلبه .

قلت : وبالله تعالى التوفيق هذا باطل من وجوه :

أولها : أنها دعوى بلا برهان ، وثانيها : أنه علم غيب لا يعلمه إلا الله عزَّ وجل والذي يضمره وقد قال الرسول ﷺ : «إني لم أبعث لأشق عن قلوب الناس» فمدع علم الغيب ، ومدعي علم الغيب كاذب) إلى آخر كلامه رحمه الله .(١)

فهذا الصنف من المرجئة قد اتفق مع أهل السنة في النتيجة وهو تكفير من سجد للصنم ولكنهم مختلفون معهم في التعليل ، فأهل السنة : يرون أن الإنسان بمجرد صرفه شيء من صور العبادة لغير الله يكون بهذا الفعل مشركاً بالله ولا يلتفتون في ذلك إلى بواطن الأمور من فساد القلوب .

أما المرجئة : فهم يكفرون من فعل شيئاً من ذلك ولكنهم يرجعون هذا إلى فساد الباطن ، ويرون أن مثل هذه الأعمال علامة ودلالة على الكفر القلبي ، ولا يرون أن

---

(١) الفصل ٣/ ٢٥٩ .

هذه الأعمال هي كفر بحد ذاتها ، فهم مختلفون مع أهل السنة في التعليل ولكنهم متفقون معهم في النتيجة والحكم .

وأما من يشترط أعمال القلوب في التكفير فهذا لم يتفق مع أهل السنة لا في التعليل ، ولا في النتيجة ، ولا في الحكم ، فهو أشد من هذا الصنف من المرجئة .

فلو اشترط التعظيم مثلاً أو قصد التعظيم للحكم على الساجد للصنم بالكفر (والتعظيم عمل قلبي ، وكذا المقصد) فهو مرجئ ، لأنه اشترط في الكفر عمل القلب .

وكذا لو اشترط التعظيم في تكفير من ركع للصليب .

وكذا لو اشترط التعظيم وقصد التعظيم في تكفير من صرف عبادة القيام للعَلَم ، على هيئة السكون أو عبادة السجود للعَلَم ، أو عبادة الطواف حول العَلَم ، فإنه يكون مرجئاً .

وقد جمع الله تعالى بين هذه العبادات بقوله تعالى : ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾**﴾ (الحج) .

وبيَّن سبحانه أن القيام حق له وحده كما أن السجود حق له وحده .

فقال سبحانه : ﴿**وقوموا لله**﴾ (البقرة : ٢٣٨) .

وقال سبحانه : ﴿**فاسجدوا لله**﴾ (النجم : ٦٢) .

الفهرس